سلطة العنوان في رواية "الممنوعة" لـ"مليكة مقدم"
قراءة في البنية والدلالة

أ.عبد الله ركاب. جامعة. أم البواقي-الجزائر.

ملخص:

العنوان نواة الكون الروائي المشكل من المتن وجزيئات تدور في مدارهِ دون أن تمتلك القدرة على الانفلات من قبضته المحكم حبكها لتوليد الاستمرارية الحياتية للعنوان والنص المنضوي تحته، فتتجلى القراءات متناسلة عن بعضها دون القبض عن المعنى المقصود، كونه روح العمل الإبداعي، والإمساك بدلالته تمثل حكما عليه بالموت، ونحن في هذه الدراسة ننطلق من هذه المركزية لنرسم خريطة نصية نستكشف فيها أغوار العتبة وصلتها بباقي العتبات المتواشجة، وفق المقاربة السيميائية والتناصية للعتبة.

الكلمات المفتاحية: سلطة العنوان-الرواية-البنية-الدلالة.

The title's authority in the novel Almamnouaa by Malika Mkadem.
A structural and semantic reading

Abstract:

The title is the core of the novelistic universe which is composed of lot and particles that spin in it’s orbit and are unable to free themselves from it’s strong fist to generate life continuity for both the title and the text .the readings appear distinctly giving birth to each others without capturing the intended meaning being the soul of the artistic work and keeping to its significance represents sentencing it to death. and we are starting in this study from this central point to draw a text map to explore the depths of the threshold and its relationship with the other thresholds according to the semiotic and Intertextual approach of the threshold.

Keywords: The title's authority. The novel. Reading. Structural. Semantic.

مقدمة:

تعد مرحلة ما قبل ميلاد النص مرحلة مهمة بالنسبة للكاتب؛ إذ إنه يولي كل عنصر من العناصر المكونة لعمله اهتمامًا مركزًا يفرز رسالة يرسلها إلى القارئ عبر نظام علاماتي متراص يسند بعضه بعضا تركيبيا ودلاليا، فـ «"المرسلة" الموجهة من "المرسل" إلى "المتلقي" لا يمكن –بحال ما من الأحوال- أن تنحصر في العمل، بل هي

"العمل" و"العنوان" متكافئين تكافؤًا سيميوطيقيا، إلى الحد الذي يجعل الاهتمام بواحد منهما، دون الآخر، إهدارًا، ليس لما أهمل فحسب، وإنما لما تم الاهتمام به كذلك» [1].

ولعتبات النص في النقد المعاصر أهمية بالغة اكتسبتها من الدور الذي تؤديه؛ من خلال إبرازها «جانبا أساسيا من العناصر المؤطرة لبناء الحكاية ولبعض طرائق تنظيمها وتحققها التخييلي. كما أنها أساس كل قاعدة تواصلية تمكن النص من الانفتاح على أبعاد دلالية تغني التركيب العام للحكاية وأشكال كتابتها» [2].

هذه المكانة منحت النص الموازي اهتماما مثيرا في مجال الدراسات النقدية المعاصرة التي التفت حوله، وحطت أثقالها التنظيرية والتطبيقية على كاهل هذه العتبة لحدٍ مكنها من امتلاكها نظرية ستزاحم بقية النظريات الأدبية في الميدان الفكري والنقدي، مستوقفة ومحللة لهذه العتبة المتنوعة المكونات والمتمثلة في: العنوان الرئيسي، العنوان الفرعي، العناوين الداخلية، اسم المؤلف، الغلاف، الإهداء، المقدمة، الخاتمة، كلمة الناشر وغير ذلك من العناصر النصية الموازية. وتجتمع هذه العتبات محيطة بالنص، قصد التعريف به، والإعلان عن هويته، وجنسه للقارئ [3].

فالعنوان يعتبر أحد مكونات النص الموازي، ويمثل «أول عتبة يمكن أن يطأها الباحث قصد استنطاقها، واستقراءها، بصريا، ولسانيا، وأفقيا، وعموديا»[4]، لما تحتويه من مخزون وطاقة دلالية كثيفة، شُحنت وضُغطت في خطاب قصير قابلا للانفجار معلنا عن دلالات بإمكانها أن تحتوي النص بأكمله، وربما أكثر من هذا بالإحالة إلى المسكوت عنه في النص، ويترجم ذلك عبر القراءة المنبثقة عن رؤية سليمة، وممنهجة من قبل القارئ الذكي الذي يستفزه/يغريه هذا الخطاب، وينشط في نفسه رغبة الدخول إلى عالم الثيمات محاولا الغوص في أعماق النص.

من الذين اهتموا بدراسة العتبات الناقد (ج. جينيت)، الذي أولى أهمية كبيرة للمناص/النص الموازي، واعتبره «كل ما يجعل من النص كتابا يقترح نفسه على قرائه أو بصفة عامة على جمهوره، فهو أكثر من جدار ذي حدود متماسكة، نقصد به هنا تلك العتبة بتعبير (بورخيس) البهو الذي يسمح لكل منا دخوله أو الرجوع منه»[5].

كما اعتبره (ج. جينيت) جزءا من المتعاليات النصية* التي تمثل موضوع الشعرية عنده، والتي «تدرس التعالي النصي (Transcendance textuelle du texte) أو المتعاليات النصية (Transtextuealité)، ومفهوم التعالي النصي هو حسب جينيت كل الذي يجعله في علاقة، ظاهرة أو مخفية مع باقي النصوص، فالتعالي النصي يتجاوز إذا، ويضم المعمارية النصية (L'archtextualité) وبعض الأنماط الأخرى»[6].

يمارس العنوان كنص موازٍ دورا انفتاحيا على ما يحيط به من نصوص، متفاعلا معها في صورة استدعائية قصدية لبناء رسالة خطابية -تعبر عن توجه الروائي- يعلن عنها بعنوان، فيكون «إعلان عن القصد الذي انبنى فيه (إما واصفا بشكل محايد، أو حاجبا لشيء خفي، أو كاشفا غير آبه بما سيأتي، لأن العنوان يظهر معنى النص، ومعنى

الأشياء المحيطة بالنص، فهو من جهة يلخص معنى المكتوب بين دفتين، ومن جهة ثانية يكون بارقة تحيل على الخارج، خارج النص»[7].

يمثل العنوان علامة نصية، وسيميائية ناطقة، ومعبرة عن هوية ما تتصدره، كما أنه عمل روائي مواز لمتن الرواية المكتوبة، وهو نص مشفر يحتاج إلى جملة من الآليات، والأدوات التحليلية، التي من شأنها تبيان مكوناته، وإجلاء معانيه المكثفة، الساحرة، الجاذبة، المحيرة، الفاتحة أبوابها على التأويلات التي يصنعها المتلقي لحظة الاصطدام به. فهو أول ناقد لتلك العلامة التي تستهويه «وتستوقفه لكي يتأملها من أجل استنطاق مكوناتها مادامت السيميولوجيا هي ذلك العلم الذي يبحث في أنظمة العلامات سواء أكانت لغوية أم أيقونية أم حركية»[8]، كما أنه كاتب جديد متجدد للرواية بفعل قراءاته المتعددة المختلفة.

يضيف (ليوهوك LEOHOEK)* -أحد أقطاب العنونة- قائلا بأن «العنوان مجموعة العلامات اللسانية، من كلمات وجمل، وحتى نصوص، قد تظهر على رأس النص لتدل عليه وتعِّينه، تشير لمحتواه الكلي، ولتجذب جمهوره المستهدف»[9] لتقربه من مكنونات النص، وتفتح باب بناء آفاق تخيلية له في إطار علاقة العتبة الأولى وصورتها في ذهن "القارئ /المتلقي"، وعلاقتها بالنص في ظل الانفتاح الدلالي للعنوان، وذلك من خلال المعنى الذي يختزله العنوان؛ هذه النواة الدلالية التي تؤسس لنص، وتهبه مشروعية الوجود، ومنه تنطلق الشرارة الأولى لفعل القراءة، وبه تبدأ رحلة البحث عن المعنى، وبصفته بؤرة دائمة لتوليد الدلالات التي يمكن أن يحملها دون النص أحيانا، بقوله ما لا يقوله النص انطلاقا من وظيفته الانتاجية للدلالة المعرفة بهوية النص، والمحددة لمضمونه، والجاذبة القارئ إليه عبر جمالها البصري، والدلالي المنفجر من تواشج الأيقونات الماثلة على الغلاف.

وهنا ننقاد للحديث عن وظيفة العنوان التي تعتبر أحد المباحث المعقدة للمناص، والتي استوقفت الدارسين أثناء تحليلهم، فاتجهوا إلى ما قدمه (ياكبسون) من وظائف لغوية تواصلية، واعتمدوها سبيلا للمقاربة، فوجدوا في الوظائف التي قدمها (ياكبسون) مجالا للبحث رغم تعقيدها، واختلاف وجهات مقاربتها؛ ومن أولئك الذين تعاملوا والوظائف (لوي هويك) الذي أجملها في تعريفه للعنوان من حيث هو مجموعة من العلامات اللسانية التي تظهر على رأس نص ما، قصد تعيينه وتحديد مضمونه الشامل، وكذا جذب جمهوره المستهدف، أما (شارل غريفل) فقد حددها في ثلاث وظائف، هي: 1- تسمية النص/الكتاب. 2- تعيين مضمونه. 3- وضعه في القيمة أو الاعتبار. في حين أنَّ (هـ. ميترون) جمع بين نظامية (هويك) ودقة (دوشي) في تحديده لوظائف العنوان التي حصرها في ثلاث وظائف، هي: 1- الوظيفة التعيينية/التسموية. 2- الوظيف الإغرائية أو التحريضية (والتي جمعها ""هويك" في الوظيفة التداولية). 3- الوظيف الإيديولوجية. أما (ج. جينيت) فقد جعل من التعميم الوظيفي منطلقا له، ورأى أن للعنوان ثلاث وظائف هي التعيين (désignation)، تحديد المضمون (indication du

contenu)، إغراء الجمهور (séduction du public)، بعد أن وضع بعض الملاحظات المعدلة والمكملة لما سبق[10].

وفي هذه الدراسة سنتتبع النظام العلاقاتي بين العنوان وبعض العتبات المحيطة به انطلاقا من بنيته النصية التي تمثل البداية المستنطقة لدلالاته، والواقفة عند تركيبته، ثم النظر في النقاط السابحة في مداره، من نص، وبداية سردية، معتبرين إياه النواة المركزية التي يدور في مجالها بقية العتبات المستلهمة لطاقتها الدلالية منه، والمحاوِلةُ الانفلات من رقابته لحظة تشكيلها لدلالتها بأبعادها النصية الخاصة بها، ومن الروايات النسائية الجزائرية المعاصرة اخترنا رواية (الممنوعة) للروائية (مليكة مقدم) لنغوص في أعماق عتباتها متخذين من العنوان نواة وبقية العتبات ثيمات سابحة في مداره خاضعة لرقابته وسلطته.

1-العنوان/البنية النصية:

يلعب العنوان كعلامة لغوية دورا بارز في إظهار هوية العمل الذي تصدر غلافه والتعريف به، لكنه قد ينزاح عن هذه القاعدة في بعض الأحيان فيغرق القارئ في دوامة من المتاهات مما يُصَعِبُ عليه إيجاد دلالة للعنوان، وفي هذا التضليل قصد عمد إليه الروائي، لإظهار أحقية النقاط الصغير في ترأس العمل. كون العلاقة بين العنوان والنص الروائي شرط أساسي ضعفت أو قويت، ويعتبر (جميل حمداوي) العنوان مصدر انبعاث الدلالات «بنية رحمية تولد معظم دلالات النص، فإذا كان النص هو المولود، فإن العنوان هو المولد الفعلي لتشابكات النص، وأبعاده الفكرية والأيديولوجية»[11].

قيمة العنوان في علاقته بالنص غير المستكشف، شبيه بقيمة الكلمة فيما تريد تعيينه؛ فهو علامة نصية، تسعى إلى الكشف عن ملامح المجهول المنتظر (النص)، وتخلق جوا من الألفة، يستأنس بها القارئ قبل أن ينخرط في رحلة استكشاف النص، والتسلل إلى ردهاته الداخلية[12].

وفي اللحظة التي تصطدم فيها عين القارئ بالعنوان، يكون العالم الروائي في حكم المجهول؛ لأنه يمثل حلقة التعارف الأولى بين القارئ والنص من جهة، وبين ما هو مجهول (أو ما هو في طور التشكل) يتعرف عليه القارئ بالتدرج، ليصبح بعد ذلك المجهول معلوما من جهة ثانية. ...، من هنا يغدو العنوان موقع التلاقي بين الكتاب و«اللاكتاب» بالمفهوم المتداول والمتعارف عليه بصفته عتبة ممهدة لولوج عوالم النص، وخطوة مطمئنة للقارئ؛ يقترح ضمنيا، إقامة علاقة حوارية بين داخل النص وخارجه، وهو بذلك المقترح يعمل -بطريقة غير مباشرة- على التخفيف من حدة تهديد الجديد المفاجئ، والغامض في النص الذي يروم القارئ استكشاف مجاهله[13].

وقبل الوقوف عند علاقات العنوان بالعتبات المحيطة به، من الجلي أن نحط عند بنيته النصية، لما في ذلك من قدرة على تبيان جمالياته التي قد نلامسها من خلال تفكيكه، واستنطاق جزئيات في إطارها الانفرادي أو بين ثنايا النسيج النصي.

أ- المستوى التركيبي:

تتمظهر عناوين الروايات أمام القارئ بتراكيب مختلفة من رواية إلى أخرى، متأرجحة تركيبيا بين اسمية وفعلية الجملة، وبين جملية ومفردية الصيغة؛ إذ تقدم الروائية (مليكة مقدم) رواية تحت عنوان (الممنوعة)، والمتكون من مفردة وحيدة معرفة في صيغة المفرد المؤنث لفظيا، عبر جملة اسمية تتميز بحضور المسند (الممنوعة) وغياب المسند إليه المقدر بضمير الغائب (هي)، وهو عنوان «ذو وظيفة تشويقية؛ لأنه يمثل فخا سرديا، هدفه الإيقاع المبكر بقارئه، من خلال ما يختزنه من طاقه إغراء وجذب»[14].

ويُظهر هذا التشويق الضمير الغائب المكمل لبنية الجملة نحويا، «حيث يجهل القارئ منذ الوهلة الأولى على ماذا أو على من يعود هذا الضمير»[15]، الذي قُدِرَ بصيغة المؤنث الغائب، يضاف إلى هذا ما تحمله الجملة الإسمية من دلالة على الثبوت والدوام، واستمرار المنع كوصف ثابت ملازم للذات الأنثوية التي أُعْلِنَ عنها نحويا بـ (تاء التأنيث)، لتجسد الروائية أحد أهم قوانين العنونة الناصة على اقتصادية المعجم؛ إذ «كلما تقلص المستوى المعجمي للعنوان أضحى دالُّ العنوان حراً في الانزلاق، وإنتاج الدلالات، فيغدو العنوان محفزاً للقارئ إلى محاولة حسمٍ دلالي عبر قراءة النص، والبحث عن القرائن اللفظية، والدلالية للعنوان»[16].

ب- المستوى المعجمي/الدلالي:

تمثل عملية انتقاء الكلمات وجمعها في شكل نسيجي دلالي، تتواشج فيه بمعانيها المعجمية، خلق لدلالات جديدة تدخل في عملية تفاعلية ضمن بنية تركيبة تستقطب انتباه القارئ وترتحل به إلى عوالمه الدلالية الزئبقية المفجرة من العلاقة الموجودة بين الجانب المعجمي والدلالي للعنوان. أما العلاقات الدلالية الحاضرة فيه فهي متعددة منها: التضاد، أو التنافر أو الترادف أو اشتمال علاقة الجزء بالكل أو العكس ذلك أنَّ معنى الكلمة في النص مرهون بـ «محصلة علاقاتها بالكلمات الأخرى في نفس الحقل المعجمي»[17]، ومن العناوين ما يتخذ من الكلمة المفردة شكلا له، مثيرا في نفس المتلقي الكثير من التساؤلات حول ماهيته، والمقصود به، ومنها ما دون ذلك.

والروائي بدوره ينتقي لعمله العنوان الذي يتميز بهذه الصفات الشائكة التي توقع بالمتلقي في فخ اللاإمساك بالمعنى. وموضوع علاقات الكلمات داخل النظام اللغوي قسمها (ف.دي سوسيرF.de Saussure) إلى "نوعين من العلاقات، أما الأولى فهي «علاقات تعتمد على الطبيعة الخطية للغة لأنها مرتبطة ببعضها البعض"، وهي العلاقات السياقية أو السنتاكمية، أما الثانية: العلاقات الإيحائية فتنشأ عن طبيعة لغوية خالصة" فالكلمات التي تشترك في أمر ما ترتبط معا في الذاكرة، وتتألف منها مجموعة تتميز بعلاقات متنوعة»[18].

يقودنا المستوى المعجمي إلى «الحقل الدلالي» حسب طبيعة التسلسل التوافقي للنصي، أو التجاور العتباتي، ونجد ذلك في هذا العنوان ذي العلاقات الدلالية التي تحكمه والمتشكلة في صورة تضاد، أو تنافر، أو ترادف، أو اشتمال علاقة الجزء بالكل، أو

العكس؛ فالعنوان إذا يتشكل من جانبين جانب معجمي، وآخر دلالي، يتيح الأول للقارئ فرصة البحث والغوص في المعاني التي ترسلها الكلمات بالرجوع إلى وجودها المعجمي الذي لا **يبتعد كثير عن الجانب** الدلالي، بل يوصل إليه من قريب أو بعيد. ذلك أنَّ معنى الكلمة في النص مرهون بـ «محصلة علاقاتها بالكلمات الأخرى في نفس الحقل المعجمي»[19]، ومن العناوين ما يتخذ من الكلمة المفردة شكلا له، يثير في نفس المتلقي الكثير من التساؤلات حول ماهيته والمقصود به.

والعلامات اللغوية في ظل الدراسات المعاصرة لا تستقر عند معنى واحد بل تفتح آفاق تَوُقَعِية كثيرة أمام القارئ، ومرد ذلك إلى طبيعة صياغتها والوظيفة المنوطة بها، فالكتابة ممارسة إبداعية والعنوان جزء من هذه الممارسة التي «جوهرها العدول وخرق المألوف والمغامرة في الدلالة وإيجاد علاقات وجودية مغايرة بين الأشياء، حيث تتولد عن هذه الانزياحات، على مستوى صياغة العنوان، دلالات جديدة عذراء تنفتح على من قراءة وتأويل»[20]، وهذا ضرب من ضروب الأداء الوظيفي للعنوان الذي يسعى إلى تحمل أكبر قدر من الدلالات، مما يمنحه صفة التحول «من مجرد ملفوظ عابر إلى ملفوظ يشكل نبراسا يضيء طريقة الكتابة، ويشير إلى ما هو آت. إنه مادة تذكي **ألق** الإيحاء بكل ما هو محتمل، وتضفي عليه نفحة الإشراق، فيغدو العنوان تعابير رقيقة الإيقاع، ملفوظة في لغة شاعرية باعتبارها لغة الصور الشعرية، ولغة الترميز والأقنعة، ولغة النطق الباطنية في الذات الإنسانية»[21].

يعلن عنوان رواية (الممنوعة) عن وجود هذه الرواية، واسما إياها، ومحيلا عن جنس يقبع في ظل شبكة تقييدية تعكسها دلالة الكلمة التي تأخذ اشتقاقها من مادة (مَنَعَ) التي تعني (حَرَمَ)، و«في الحديث اللهم من منعت ممنوع؛ أي من حرمته فهو محروم»[22]. ويحمل العنوان دلالة حسية عبر مفردته (الممنوعة) التي تحيل ذهن القارئ إلى شخص يقبع في منطقة يحكمها صوت التحريم، إضافة إلى دلالته على انتماء هذا الصوت المقيد إلى الجزء الأضعف في العلاقة التواصلية؛ كون هذا الأخير يشير إلى ذات محملة بالضعف واللاإرادة، كما يعلن عن جانب مساءلاتي بصيغ ضمنية للآخر الذي يمثل المانع لما تصبو له الذات الأنثوية.

وفي كذا مقام يقيم العنوان شوكته في حلق القارئ، ويفتح المجال للتأويل والانفتاح على أكثر من دلالة فلا يستقر عند دلالة تقديرية واحدة للخفي المتبقي. بل يفتح المجال للتشعب إلى أكثر من معنى مما يزيد درجة انفعال القارئ الساعي لتحصيل إجابة للخطاب التساؤلي: هي الممنوعة من ماذا؟ أو هي الممنوعة عن ماذا؟.

وبالإجابة هذه التساؤلات، يُمنح الآخر المقدَّر دلالة استعبادية بطشية بالذات المؤنثة المعلن عنها عبر تاء التأنيث الملحقة بكلمة العنوان، وهنا تبرز شعرية العنوان من خلال أدائه وظيفة إرباكية تشتيتية للقارئ، الذي يقف محتارا أمام الدلالات التي يحيل إليها، وفي خضم هذا التشظي الدلالي تزداد وتيرة التشويق والرغبة لاستكناه ما

وراء الغلاف، وفك شفرة العنوان الذي لا يطاوع القارئ، ولا يسلمه المعنى اليقيني ليبقى منفلتا.

2- العنوان/النص:

يترأس العنوان النص بحضوره على عرش الغلاف، معلنا "عن وجوده بصفته «نصا مصغرا» «Microtexte» مولِّدا لسننه الخاص. باعتباره مكونا متميزا، في سياق فضاء صفحة العنوان «Page de titre» الزاخر بالعلامات اللغوية والتشكيلية، لا يفترض العنوان الاستقلال التام عن النص؛ فهو بالتالي عنصر من مجموعة العناصر المكونة للخطاب الروائي برمته (صورة الغلاف، الإهداء، الخطاب الافتتاحي، النص المركزي، التذييل...)"[23].

وكونه عنصر يدل على وجود علاقة تربطه ببقية العناصر متحاورا معها، آخذا ومضيفا دلاليا، ولإضاءة العنوان الرئيسي، يمكن الرجوع إلى متن النص/الرواية، حيث نلتقي بخيوط ترتب العلاقة القائمة بين العنوان والنص، الذي يكون "بمثابة رأس للجسد، والنص تمطيط له، وتحوير، إما الزيادة أو الاستبدال أو النقصان، أو التحويل. إن العنونة بالنسبة للسيمولوجي بمثابة بؤرة ونواة للقصيدة الشعرية. يمدها بالحياة والروح والمعنى النابض ((إن العنوان يمدنا بزاد ثمين لتفكيك النص ودراسته، ونقول هنا: إنه يقدم لنا معرفة كبرى لضبط انسجام النص وفهم ما غمض منه، أذ هو المحور الذي يتوالد ويتنامى ويعيد إنتاج نفسه، وهو الذي يحدد هوية القصيدة، فهو -إن صحة المشابهة بمثابة الرأس للجسد- والأساس الذي تبنى عليه، غير أنه إما أن يكون طويلا فيساعد على توقع المضمون الذي يتلوه. وإما أن يكون قصير وحينئذ، فإنه لا بد من قرائن فوق لغوية توحي بما يتبعه))"[24].

بربط العنوان بالرواية خيط يُتَمِمَ دِلالته، وبتكفل بترجمة ما يحمل من معاني ودلالات عميقة تتكتل بقيمتها التاريخية والإنسانية والروحانية في مركز واحد، وهنا يرى (رولان بارت) أن "العناوين عبارة عن أنظمة سيميولوجية، تحمل في طياتها قيما أخلاقية، واجتماعية، وايديولوجية"[25]، ويعطي ما يحيط به أبعاد ودلالات، يقول: "يبدو اللباس، السيارة، (...) الأثاث (...) أشياء متنافرة جدا. ما الذي يمكنه أن يجمع بينها؟ إنه على الأقل: كونها جميعا، أدلة. فعندما أتنقل في الشارع أو في الحياة- أصادف هذه الأشياء، فإني أخضعها للقراء، بدافع الحاجة، دون أن أعي ذلك لنفي النشاط، الذي هو نشاط قراءة. يقضي الإنسان المعاصر وقته في القراءة. إنه لا يقرأ أولا، وبصورة خاصة، صورا- إيماءات وسلوكات هذه السيارة تطلعني على الوضع الاجتماعي لصاحبها،.."[26].

فالعلاقة بين العنوان والنص هي علاقة شاملة لا تقف عن بعض الجزئيات بل تتجاوزها إلى حد تشكيل كيان متكاملة من جوانب متعددة. فالعنوان كنص تحيط به نصوص أخرى تتقاسم وإياه حقها في الوجود، وتتضمن دلالات متعددة تثري العمل الإبداعي وتمنحه أحقية الفرادة والتميز، ويقف الدرس السيميائي عند العلاقة بين العنوان

والنص فيقر بوجود «علاقة إنسيالية بين العنوان والنص، مما يشكلان معا بنية شاملة. وبالتالي يعزى ذلك بالقول مع جيرار فينييه (Gerard Vigner): ((إن العنوان والنص يشكلان بنية معادلية كبرى: العنوان: النص)). أي أن العنوان، بنية رحمية تولد معظم دلالات النص، فإذا كان النص هو المولود، فإن العنوان هو المولد الفعلي لتشابكات النص، وأبعاده الفكرية والأيديولوجية وهكذا، يكون عنوان نص شعري، أو رواية ما (يعلن عن نفسه كجملة أولى في النص، مؤكدا تبعيته (...) لأن الجملة الأولى تتمة منطقية للعنوان الذي يشير إلى بطل الرواية أو إلى حدثها الأساسي كما يقول ليو. هويك. أو قد يعلن العنوان عن نفسه ((كعنصر نصي يلد الرواية في عملية دقيقة جدا، أو كحافز)) بتعبير كلود دوشيه)»[27].

بالمرور إلى الرواية عبر جسر الدلالات المتعددة التي خلقها غموض العنوان نجد أنَّ كلمة (الممنوعة) قد وردت في الرواية في مواضع كثيرة مرد ذلك إلى طبيعة العنوان المرجعية؛ فهو يرتبط بالنص إيحاليا إذ يحيل إلى النص كما يحيل النص إليه، ومن المقاطع السردية الواردة في الرواية نذكر قول الذات الساردة:

"أضحت تهديدات وممنوعات الجزائر تحدث في نفسي هلعا لا مثيل له. لذلك هربت من كل شيء"[28].

"سيدتي لا تستطيعين المجيء. ممنوع.
شدني صالح من ذراعي.
ممنوع؟ من منعه؟
لا تستطيع المجيء! الله يحرم ذلك!"[29]

في النص الأول نلاحظ أن الممنوعات بصيغتها الجمعية، تشير إلى جملة من القوانين والأعراف والحواجز الشائكة التي رسمها المجتمع، لضبط وإخضاع الفرد، كما جاءت هذه الممنوعات مقترنة بالمكان الذي هو الجزائر/الوطن، المنتحل صفة الاستهجان لا الحماية في ظل التغيرات السياسية، والاجتماعية، التي عرفتها البلاد أيام العشرية السوداء، وهو أيضا الحيز الذي تتحرك فيه الشخصية الساردة، التي تعاني من تضييق يسر لها سبيل الهروب كحل أولي، للتخلص من القيود المسلطة عليها.

وفي النص الثاني توضع الذات المعنية في بوتقة ضيقة حينما يخاطبها "رئيس البلدية"، بنبرة الرفض والمنع، رفض وقوفها في موكب الدفن، ومحاولة منعها من الاستمرار في السير وراء جثمان الميت، متذرعا بعذر ديني، ليتشكل بذلك قيدين هما: قيد السلطة السياسية، والقيد الديني، الذي استند إليه –رئيس البلدية- لكسر رغبة (سلطانة) إحدى شخصيات-بطلة- الرواية، في حضور مراسيم الدفن، والطرف السان للقانون، يمثل فئة متعصبة من المجتمع تتحكم في دورته الدموية، وتنظم حياته وفق منظورها الذي يراه صوابا، وسدا منيعا يقي المجتمع الجزائري من الانفلاتات، ويتراء -القانون- للذات الأنثوية كمانع وقيد لحقها، المتمثل في الحضور.

تدين (سلطانة) بطلة رواية (الممنوعة) -للروائية (مليكة مقدم)- المجتمع الجزائري، وتحمله المسؤولية الكاملة لما حصل لها، عبر مراحل حياتها، بدءا من الطفولة إلى غاية بلوغها المرحلة الثانوية، إذ كان لصوت المجتمع المرتفع وقع على نفسها، وقوة أخرصتها، مما شكل لديها فكرة سوداوية عم يحيط بها، وأن كل ما يتعارض ورغبتها قانون مانع، وبتكرر تلكم الممنوعات نقش في ذهنها ولاوعيها خلفية معرفية عن الممنوعات، فرضت عليها الهجرة نحو فرنسا للتخلص من قيود المجتمع، ومن هنا انتقت الروائية عنوان روايتها ولكنها لم تأخذ الأحكام كخطاب موجز، بل قدمت الذات المسقط عليها الحكم، وتركت الحديث المفصل للمتن الروائي.

بعد الوقوف عند بعض العناصر التي أشارنا إليها؛ نجد أنَّ العنوان يتصل بالنص الروائي، وحاضر في كل المشاهد السردية الواردة بين دفتي الغلاف، مؤكدا قوته "وسلطته في كونه النواة التي ينطلق منها النص ويرتدُ إليها"[30]، كما نرى أن (مليكة مقدم)، حمَّلت عنوان روايتها معنى رمزي، يعبر عن واقع جزائري، يسوده التحريم، ومنع للمرأة من التحرك بحرية، وإبقائها في الظل، تحت لواء الحريم الذي كان سائدا قبل مجيء الإسلام، مما أدخلها في حالة نفسية معقدة نجمت عن كبتها لرغباتها، التي ستنفجر والأيام تعبيرا عن الرفض الصارخ للوضع القائم، والواقع القاتم، المغيب لحضورها، في أصغر مساحة نصية، فرضت نفسها على النص، إذ لا نمر على حدث من أحداث الرواية إلا ووجدنا له صلة بالعنوان.

3- العنوان/البداية السردية:

تشحن الكاتبة كل ما يحط بالنص الأصلي برموز تكستي صفة الغموض والزئبقية، -بدءا بالعنوان فالغلاف فالإهداء فالفاتحة النصية، وكلها تمثل عتبات تحيط بالنص-، تلمح إلى مضمونه دون التصريح، والإعلان عما يتناسل داخله من أحداث، والكاتبة لا تقتل القادم بتقديمها له، بل توظف فيه كلمات مفتاحية لا تكتمل دلالتها إلا بالسير قدما نحو المتن الروائي، والقارئ لهذه النصوص يلفي نفسه يتساءل عن سبب تلكم النظرة السوداء للآخر، وعن طبيعة العلاقة بينهما، وعن موقع الأنثى باعتباره المقدم للنص داخل العالم السردي، وكيفية تحركها، إضافة إلى التساؤل أيضا عن القوانين التي يفرضها الآخر ومدى تضاده ورغبات أبطال الرواية.

ومن المكونات البنائية التي يلتقي بها القارئ قبل الولوج إلى أعماق النص بعد العنوان "البداية السردية"، والتي لا تقل مكانة عن باقي النصوص الموازية؛ إذ يشاكس فيها الروائي المتلقي بوضعه أمام حدث سردي مكثف تلعب فيه اللغة الشعرية دورا كبير يستدرج عبرها المتلقي إلى النص في جو يتجاوز فيه الروائي اللغة المعيارية، إلى اللغة الشعرية.

وتمثل البداية السردية حلقة وسطى تربط بين العنوان والنص الروائي، لأنها «تفتح السبيل لما يتلو وتسوّغ النص وتقدِّم إشارات أجناسية وأسلوبية، وتبنيّ عالما تخييليًا، وتوفر معلومات أكثر عن الحكاية المروية» [31]، أي أنها تعمل في العمق على

«ضبط مختصر للرواية، أي محاولة تقديمها ملخصة بدقة وشمولية ففي أكثر من نص روائي يكفينا التعامل مع البداية لمعرفة ماجريات الأحداث ولواحقها. إذ وانطلاقا من هذا الملخص المختصر يتم تفصيل وعرض القضايا المخبر عنها».[32].

تختلف البداية من جنس أدبي لآخر، «فإذا أخذنا بعين الاعتبار قصة قصيرة فإنه يمكننا القول بأن البداية واحدة، ومنها يتسنى الدخول إلى فحوى النص لإدراك طريقة بنائه ومعناه الكامن. أما النص الروائي يمتلك أكثر من بداية. ثمة البداية الأصل أو الرئيسية، وهي بمثابة العتبة التي تقذف بنا إلى رحابة النص. كذلك توجد بدايات أخرى يمكن القول في حقها بأنها ثانوية، وتتعلق بالفصول المشكلة للنص الروائي. إن البداية الثانوية تعضد ما هو أصلي ورئيسي، كما تنوع عليه تفاديا للتواتر الممكن حدوثه على مستوى السرد»[33].

ومع ما تقدمه الفاتحة النصية من إضاءات للقارئ حول مضمون الرواية، يجد الروائي نفسه مجبرا على وضعها؛ لأنها –إلى جانب بقية العتبات- تشحن أفق المتلقي بأسئلة، حول الآتي، الذي لن يقبض عليه ما لم يدخل إلى العالم السردي، منتقلا "مما هو واقعي نحو الخيالي الواقعي" [34]، ليقيم "صلته مع واقع لغوي يختار كمتكإ له الفن على مستوى الرؤية والإدراك، كما التأثير في الآخر"[35]، فالرواية التي تولد بين يدي الكاتبة «لا يمكن أن تكون نسخة مصورة للواقع، ولكنها، ودائما، اصطفاء لما هو مدرك. فلتمتد تلك الخطوة المعممة إلى أنماط يمكن لتمددها أن يغدو أكبر شيئا فشيئا، بقدر ما يكون فهمها أضعف»[36].

وإذا تأملنا النصوص الروائية فغالبا ما نجد على ظهر الغلاف سجل العنوان وتحته التعيين الجنسي (رواية) على شكل عنوان فرعي مكتوب بأحرف صغيرة. على عكس العنوان الأساسي الذي يكتب بأحرف بارزة كبيرة دلالة على أهمية بعده الأيقوني ومركزيته في إبراز دلالات الرواية، والعنوان الذي يحدد التعيين الجنسي (رواية) هو بينا إيضاحي يؤكد مدى احترام العمل الإبداعي لخصائص الجنس الروائي وسماته بطريقة جمالية وفنية، كما نجد عناوين الفصول التي تلخص مضامينها وتكثف أهم ما جرى فيها من أحداث ووقائع. وتسجل أسماء شخصياتها والأدوار التي قامت بها والصعوبات التي واجهتها في حياتها والمصير الذي آلت إليه في نهاية المطاف[37].

قدمت (مليكة مقدم) في روايتها (الممنوعة) بداية "تشي بما سيأتي في اللاحق دون أن تصدنا عن التعامل مع الرواية بكاملها، أو عن المتبقي منها"[38]، إذ قالت في بداية الرواية على لسان الذات الساردة:

"ولدت في درب القصر الوحيد درب بلا اسم. تلك هي الفكرة الوحيدة التي انتابتني أمام هذه الفيافي التي غطت ارتباكي بشلال من الضحكات الصامتة.

لم أكن أتصور أبدا بأنني أستطيع العودة يوما إلى هذه المنطقة. ومع ذلك لم ابتعد عنها بشكل نهائي أبدا. كل ما فعلته هو أنني ألحقت الصحراء والحزن الشديد إلى جسمي المهجر وبقيت مجزأة بينهما."[39].

يقدم الراوي المتكلم –الذي يدل عليه ضمير المتكلم (أنا)- البداية السردية، والمتمثل في (سلطانة) إحدى شخصيات الرواية، وفيها تعود بنا إلى مرحلة الولادة، المرتبطة بالمكان الذي هو (القصر) المحيل على بيئة فقيرة وبسيطة، والفاقد هويته بعدما ذكر في عبارة (درب بلا اسم)، وفي هذا التناقض فجوة: مسافة توتر بين معنيين أو تصوريين للمكان له هوية وليست له. فقبول المكان ورفضه ينم عن وجود تعارض بين الراوي والمكان، في قوله (الفيافي التي غطت ارتباكي) والدال على عدم التقبل، لحظة الالتقاء بعالم آخر يختلف عن الذي كانت فيه.

فالمكان في البداية السردية موسوم بالوحدة وأن لا هوية له؛ فقدها حين غُيِبَ اسمه، فهو نكرة مرفوضة، هُجِرَ لزمن ثم رجوع بعد غياب إليه. وتقدم –الروائية- أيضا لحظة التقاء (سلطانة) ومسقط رأسها الذي غادرته، فعوض أن تكون اللحظة إظهار لفرح الرجوع بعد الغياب، نجدها كئيبة شديدة الحزن.

تلمح الساردة إلى وجود صراع ولاتقبل بينها والمكان الذي جعلته شيء من الماضي، وفي هذا التقديم إشارة إلى أن مضمون الرواية يتمحور حول صراع بين البطلة والحيز المكان الذي ستدخله، وما يحتويه من مفارقات، وتناقضات، كانت سبب الحزن الشديد الذي نحت في ذاكرتها، وهو ما سيفصح عنه النص الروائي عبر مشاهده، لأن الصورة لم تكتمل عند البداية السردية، التي قدمت للمتلقي نقاط مهمة؛ منها الصراع مع المكان، رفض المكان، الهجرة، العودة، فهذه نقاط مفتاحية، تثير تساؤل حول سبب المغادرة/العودة والنظرة السوداوية للمكان، أو بصيغة أخرى حول من هم متواجدين به.

وفي هذا المد والجزر الحاد بين الذات الساردة والمكان، ورغبتها الرافضة الواردة في البداية السردية، تحضر إضاءة لنقاط معتمة نتجت عن كثافة العنوان، فكلمة (الممنوعة) عنوان الرواية الرئيسي تعود على (سلطانة) التي عادت إلى مسقط رأسها بعد زمن، وهنا يجد المتلقي إشارة ضمنية إلى رغبة المواجهة، لأن في العودة بعد الرحيل تحدٍ للمكان وما يحتوي من متناقضات ومتغيرات.

خاتمة:

بتتبعنا للعلاقة الموجودة بين العنوان والنص والبداية السردية تشكل لدينا كمٌ دلالي يلتقي وتلكم التأويلات المتشكل أثناء قراءة العنوان من حيث بنيته النصية، ليثبت بذلك الحضور العلائقي بين هذه العتبات وبقية أجزاء العمل الإبداعي؛ إذ لمسنا في النسيج النصي المتراسل بين العنوان وبقية العتبات المتجلية في صورتين مضيئة ومضاءة للعنوان، تتشكل عبرها الأخيط الدلالية المحيلة إلى العنوان والمتغذية من كثافته وزئبقيته التي منحته حق التواجد في كل زوايا العمل الروائي.

ومن هذه الزاوية أثبت العنوان مركزيته، وسلطته التي فرضت على النصوص الموازي الإحالة إليه، أو التعالق معه دلاليا ونصيا. فهذه العلاقة الكائنات تدفع إلى البحث والتساؤل حول إمكانية إنبناء جسور دلالية أخرى تصل العنوان بالجانب الصوري للغلاف، وباقي الأجزاء المكونة للنص الموازي انطلاقا من مركزية العنوان الباث لحضوره في الأمكنة الكائنة والممكنة داخل وخارج العمل الإبداعي.

الهوامش:

[1] محمد فكرى الجزار: العنوان وسيميوطيقا الاتصال الأدبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، دط، 1998م، مصر، .8.

[2] عبد الفتاح الحجمري: عتبات النص: البنية والدلالة، منشورات الرابطة، الدار البيضاء، ط1، 1996م، المغرب .16.

[3] بتصرف: خالد حسين حسين: سيمياء العنوان: القوة والدَّلالة «النمور في اليوم العاشر» لزكريا ثامر، مجلة جامعة دمشق، مج21، ع3-4، 2005م، سورية .350.

[4] جميل حمداوي: السيميوطيقا والعنونة، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، مج25، ع3، مارس 1997م، الكويت.87.

[5] عبد الحق بلعابد: عتبات (جيرا جينيت من النص إلى المناص)، منشورات الاختلاف، ط1، 2008م، الجزائر. 44-43.

[6] جميل حمداوي: السيميوطيقا والعنونة، .105.

- "للمتعاليات النصية خمسة أنماط هي: المنا.، الميتانص، النص اللاحق، معمارية النص، وهي الأنماط التي تحدث عنها (ج. جينيت)، مؤكدا على وجود علاقة تداخل بينها، أما الأكثر شيوعا وذيوعا، النص الموازي، الذي أفرد له (ج. جينيت) كتابا سماه ((عتبات)) Seuitls"، ينظر: جميل حمداوي: السيميوطيقا والعنونة .103-104.

[7] المرجع نفسه، .109.

[8] عبد المالك أشهبون: العنوان في الرواية العربية، دراسة، النايا للدراسات والنشر والتوزيع، محاكاة للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 2011م، دمشق سوريا.15.

[9] عبد الحق بلعابد: عتبات (جيرار جينيت من الن. إلى المناص).67.

- (ليوهوك) هو أقطاب "علم العنونة"، انكب على الدراسة التف.يلية للعنوان ومستوياته التركيبية وأبعاده الدلالية، مستقصيا العلاقات الجلية والخفية التي توجد بين رموز العنوان والتيمات (Thémes) التي يحيل عليها. ينظر: عبد المالك أشهبون: العنوان في الرواية العربية.17.

[10] بتصرف: المرجع نفسه. 73-74-75.

[11] جميل حمداوي: السيميوطيقا والعنونة.104.

[12] عبد المالك أشهبون: العنوان في الرواية العربية.15.

[13] المرجع نفسه.14.

[14] المرجع نفسه.83.

[15] المرجع نفسه. 83.

[16] خالد حسين: **خطاب العنوان واشتغالات القراءة الجدلية ومستويات التركيب**، مجلة الرافد، الشارقة، http://arrafid.ae/188_p18.html

[17] أحمد مختار عمر: علم الدلالة، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع، ط1، 1982م، الكويت، ص 98.

[18] محمد فكرى الجزار: العنوان وسيميوطيقا الاتصال، ص28-29.

[19] أحمد مختار عمر: علم الدلالة، ص98.

[20] عبد المالك أشهبون: العنوان في الرواية العربية، دراسة.124.

[21] المرجع نفسه.127.
[22] ابن منظور: لسان العرب، تح، عبد الله على الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلى، دار المعارف، دط، دت، مج5، القاهرة، م.ر.4377.
[23] عبد المالك أشهبون: العنوان في الرواية العربية.14.
[24] جميل حمداوي: السيميوطيقا والعنونة.107.
[25] المرجع نفسه.99.
[26] جميل حمداوي: السيميوطيقا والعنونة.99-100.
[27] المرجع نفسه.106-107.
[28] مليكة مقدم: الممنوعة، تر، محمد ساري، منشورات الاختلاف، ط1، 2008م، الجزائر.47.
[29] المرجع نفسه.22.
[30] خالد حسين حسين: سيمياء العنوان: القوة والدَّلالة «النمور في اليوم العاشر» لزكريا ثامر.361.
[31] المرجع نفسه.355-356.
[32] صدوق نور الدين: البداية في الن. الروائي، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط1، 1994م، سورية.18.
[33] المرجع نفسه.17.
[34] المرجع نفسه.18.
[35] المرجع نفسه.18.
[36] مجموعة مو: بحث في العلامة المرئية من أجل بلاغة ال.ورة، تر، سمر محمد سعد، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 2012م، بيروت، لبنان.30.
[37] رحماني علي: سيمياء العوان في روايات محمد جبريل، الملتقى الدولي الخامس، السيمياء والنص الأدبي، 15-17 نوفمبر 2008م، جامعة بسكرة، الجزائر.272-273.
[38] صدوق نور الدين: البداية في النص السردي.20.
[39] مليكة مقدم: الممنوعة.7.